

الإعراب وأثره في المعنى

د. فضل الله النور علي - جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا - قسم اللغة العربية

المستخلص:

قضية الإعراب وأثرها في المعنى من القضايا التي شغلت علماء اللغة العربية قديماً وحديثاً، وذهبت آراؤهم فيها مذاهب شتى فمنهم من يرى أهمية الإعراب وأثره في المعنى، ومنهم من لا يرى أهمية له في الجملة؛ وإنما يأتي من باب تزيين الجملة أو تعاقب الحركات لا غير. في هذه الورقة البحثية سأحاول إيراد هذه الآراء سواء أكانت للقدماء أم المحدثين وتقنيد كل رأى بما توافر لدينا من معلومات ثم ترجيح الرأى الغالب في هذه القضية المهمة.

ABSTRACT

Declension and meaning in Arabic

The issue of declension and its relationship with meaning in Arabic has preoccupied the thoughts of ancient and present-day Arabic linguists. They gave various opinions of the significance of declension and its relationship with sentence meaning. While some recognize its importance, others deny it claiming that declension is a matter of decorative alternation of marks. In this paper, the researcher presented the various view points on declension, critically appraised them and took a clear stand on this vital issue.

الكلمات المفتاحية : الإعراب - الأثر - المعنى

المقدمة:

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من أعطى جوامع الكلم وبعد:

الإعراب سمة بارزة من سمات اللغة العربية، بل هو أحد خصائصها التي لا تنفصل عنها، وتناوله علماء اللغة قديماً وحديثاً مستعرضين جوانبه المختلفة، وقد حاولت من خلال هذه الورقة البحثية تعريفه بمفهومه الشامل الذي يصل إلى درجة الفصاحة والبيان، كما تناولت آراء العلماء حوله حيث انقسموا إلى فريقين:

الأول منهما يرى أن الإعراب ليس له أثر في المعنى ويمثله قطرب (محمد بن المستنير) من القدماء وتبعه من المحدثين إبراهيم أنيس، وقد رد عليهم العلماء ردوداً دحضت ما أتوا به.

أيضاً تناول المستشرقون هذا الموضوع منكرين دور الإعراب، وأتوا بحجج واهية فندها علماء اللغة العربية، كما انبرى لهم بعض المستشرقين ممن بهرتهم اللغة العربية بالرد عليهم.

والثاني يرى أن للإعراب دوراً في المعنى، وهؤلاء هم معظم علماء اللغة العربية كأمثال الزجاجي وابن جني وابن فارس، وتبعهم إبراهيم مصطفى في العصر الحديث إلا أنه شذ عنهم بقوله إن الفتحة تستخدم كثيراً لأنها الحركة المستحبة، ولم يفهم العلماء الذين درسوا رأيه ما الذي يقصده من قوله الحركة المستحبة؟

وأخيراً ختمت الورقة بالنتائج التي توصلت إليها من خلال استعراض آراء العلماء قديماً وحديثاً حول هذا الموضوع خاتماً ذلك ببعض التوصيات.

مواضيع هذه الورقة البحثية:

١/تعريف مصطلح الإعراب.

٢/حول ظاهرة الإعراب.

٣/آراء العلماء حول الإعراب وأثره في المعنى.

أولاً: تعريف مصطلح الإعراب:

ورد في لسان العرب لابن منظور: ((الإعراب والتعريب معناهما واحد وهو الإبانة يقال: أعرب عنه لسانه وعرب أي أبان وأفصح ، وأعرب عن الرجل ببين عنه. وقال إنما سمي الإعراب إعراباً لتبينه وإيضاحه. وقال أعرب بحجته أي أفصح بها، ولم يتق أحداً وقال الإعراب الذي هو النحو إنما هو الإبانة عن المعاني بالأففاظ. وأعرب كلامه إذا لم يلحن في الإعراب))^(١).

كذلك ورد في القاموس المحيط للفيروز آبادي: ((الإعراب الإبانة والإفصاح عن الشيء ... والإعراب أن لا يلحن في الكلام))^(٢).

من خلال هذين التعريفين يتضح للباحث أن الإعراب مرتبط بالفصاحة والإبانة فمتى ما أفصح المتحدث، وأبان عما في مراده فهو معرب خاصة إذا قورن الأمر بمن هم دون العرب في الفصاحة حيث يعتقد العربي دائماً ((أنه قادر على الإفصاح عن نفسه قياساً إلى الأعجم والأعجمي اللذين يعجزان عن ذلك بنظر العرب على الأقل))^(٣).

ثانياً: حول ظاهرة الإعراب:

تعد ظاهرة الإعراب من أخص خصائص اللغة العربية، ونلمح هذا واضحاً في كتاب سيبويه حيث تحدث عن المواقع الإعرابية للكلمة وعلامات الإعراب وعلة يقول: ((إنما ذكرت لك ثمانية مجار لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل. وليس شئ منها إلا وهو يزول عنه. وبين ما يبني عليه الحرف بناءً لا يزول عنه تغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل التي لكل عامل فيها ضرب من اللفظ في الحرف وذلك الحرف حرف الإعراب))^(٤).

والسبب الذي دعا سيبويه لكل هذا الاهتمام هو أن اللغة العربية لغة تتوخى الإيضاح والإبانة، لذلك كان الإعراب أحد وسائلها للإفصاح عن صلوات الكلمات بعضها ببعض فهي تُكوّن جمل اللغة السليمة التي تعود عليها العربي الفصيح.

وهذه الظاهرة جعلت اللغة العربية تمتاز بها عن غيرها من اللغات بسبب التنظيم الدقيق الذي سادها نتيجة لقواعد الإعراب: ((والتي يتمثل معظمها في أصوات مد قصيرة يلحق أواخر الكلمات لتدل على وظيفة الكلمة في العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة، وهذا النظام لا يوجد له نظير في أية أخت من أخواتها السامية اللهم إلا بعض آثار ضئيلة بدائية في العبرية، والآرامية والحبشية))^(٥).

والحديث عن أهمية الإعراب في اللغة العربية لم يقتصر على سبويه وحده بل نجد كثيراً من النحويين واللغويين لم يرتابوا في تقرير هذه الحقيقة، وهي أن اللغة العربية لغة معربة، وأن الإعراب عنصر مهم في التركيب اللغوي، ولا يستقيم المعنى بدونها وهذا ما أكد ابن فارس بقوله: ((فأما الإعراب فبه تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين وذلك أن قائلًا لو قال: "ما أحسن زيد" غير معرب أو "ضرب عمر زيد" غير معرب لم يوقف على مراده))^(٦). ويظهر من مثالي ابن فارس أن السامع لا يستطيع استيعاب هذه الجمل، ولا يفهم المقصود منها ولكن لو قيل له "ضرب عمر زيداً" لفهم من الضارب ومن المضروب والفضل في ذلك يعود إلى الإعراب.

ومن خلال هذه الشواهد تظهر للباحث أهمية الإعراب في اللغة العربية لأنه يساعد على إزالة الغموض واللبس اللذين يمكن أن يحدثا في اللغة لولا الإعراب وهو بالإضافة إلى ذلك يعد مظهراً من مظاهر الدقة والجمال تتميز بهما اللغة العربية. ولابن قتيبة حديث يدعم هذه الحقيقة يقول فيه: ((ولها (العرب) الإعراب الذي جعله الله وشياً لكلامها وحلية لنظامها وفارقاً في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول لا يُفرق بينهما إذا تساوت حالاتهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب، ولو أن قائلًا قال: "هذا قاتل أخى" بالتثوين وقال آخر: "هذا قاتل أخى" بالإضافة يدل التثوين على أنه لم يقتله ودل حذف التثوين على أنه قد قتله))^(٧). وهنا لولا الإعراب لاختل الأمر لأن من يريد أن يحكم في هذه القضية يختلط عليه أمرها ولكن الإعراب أبان عنها دون لبس أو غموض.

فحفظ اللغة العربية وحفظ الناطقين بها من الزلل كل ذلك جعل العلماء خاصة علماء القرن الثاني الهجري يصبون كل اهتمامهم على تقويم اللسان عن طريق الحركة الإعرابية حيث استخدموا القواعد التي تضمن ذلك، واستنبطوا القوانين التي تحقق لغير العرب إمكان النطق على سمت العرب، وفي نفس الوقت الحفاظ على هذه اللغة من الضياع نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب التي دخلت في الإسلام.

ولكن رغم هذه الأهمية للإعراب التي اتضحت لنا من خلال هذا العرض إلا أن بعض العلماء قدحوا في هذه القضية وطعنوا في دور الإعراب في الجملة العربية وسنحاول من خلال هذه الورقة إبراز آرائهم والرد عليها.

ثالثاً: آراء العلماء حول الإعراب:

انقسم العلماء تجاه هذه القضية إلى فريقين:

الفريق الأول: ينكر هذا الفريق أي دور للإعراب في المعنى، وإنما وجد في اللغة لعل أخرى وهذا الرأي من القدماء يمثلته قطرب (محمد بن المستنير) ومن المحدثين الدكتور إبراهيم أنيس وبعض المستشرقين.

١/ رأى قطرب (محمد بن المستنير)

يرى قطرب أن العرب لم تعرب كلامها للدلالة على المعاني والفرق بينها لأن هناك أسماء تأتي متفكّة في الإعراب ومختلفة المعاني كما أنّ هناك أسماء مختلفة الإعراب، ومتفكّة المعاني وذلك بقوله: (نجد في كلامهم أسماء متفكّة في الإعراب مختلفة المعاني وأسماء مختلفة الإعراب متفكّة المعاني، فما اتفق إعرابه واختلف معناه قولك: إنّ زيدا أخوك، ولعل زيدا أخوك، وكأنّ زيدا أخوك اتفق إعرابه واختلف معناه، ومما اختلف إعرابه، واتفق معناه قولك: ما زيد قائماً وما زيد قائم اختلف إعرابه، واتفق معناه...))^(٨).

وله رأى آخر يرى فيه أنّ هذه الحركات جيء بها للسرعة في الكلام وللتخلص من التقاء الساكنين عند اتصال الكلام، وليس لها دور آخر في الجملة فيقول: ((وإنما أعربت العرب كلامها لأنّ الاسم في حالة الوقف يلزمه السكون للوقف فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً لكان يلزمه الإسكان في الوقف، والوصل وكانوا يبطئون عند الإدراج فلما وصلوا وأمکنهم التحريك جعلوا التحريك معاقباً للإسكان ليعتدل الكلام ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ومتحركين وساكن ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة، ولا في حشو بيت ولا بين أربعة أحرف متحركة لأنهم في اجتماع الساكنيين يبطئون وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون وتذهب المهلة في كلامهم فجعلوا الحركة عقب الإسكان))^(٩).

فما قاله قطرب يحتاج إلى تعليق، لأنّ الإعراب إذا كان هدفه تعاقب الحركات لأتى كل متحدث بالحركة التي تروق له، وهذا فيه فساد للغة وخروج على أوضاع العرب حيث تتعدم الضوابط بين المتحدثين. وأن تعاقب هذه الحركات لا يحدث نتيجة اتفاق بين أبناء اللغة العربية وإنّما كل متكلم يعاقب الحركات حسب رغبته وربما ينصب هذا الفاعل بينما يجره الآخر، وهذا يعمل على وأد اللغة العربية لأنّ الأجيال الجديدة لا تجد قاعدة معينة تستطيع من خلالها فهم اللغة، وتوظيفها في حديثها مع بعضها البعض.

٢/ رأى الدكتور إبراهيم أنيس:

سار الدكتور إبراهيم أنيس في نفس الطريق الذي سار عليه (قطرب) بل اقتفى أثره كأنّ يضع الحافر على الحافر وذلك بقوله: ((يظهر - الله أعلم - أنّ تحريك أو آخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل في الكلام شعراً، أو نثراً فإذا وقف المتكلم أو اختتم جملته لم يحتج إلى تلك الحركات بل يقف على آخر كلمة من قوله بما يسمى السكون كما يظهر أنّ الأصل في كل الكلمات أن تنتهي بهذا السكون وأنّ المتكلم لا يلجأ إلى تحريك الكلمات إلا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل))^(١٠).

وهنا يرى الدكتور إبراهيم أنيس أنّ الحركات الإعرابية ليست دلالة على الفاعلية أو المفعولية أو غيرهما وإنّما هذه الحركات لا تعدو أنّ تكون حركات يحتاج إليها لوصل الكلمات بعضها ببعض. فهي إذاً تأتي للتخلص من التقاء الساكنين عند وصل الكلام. أما الفاعلية والمفعولية وغيرهما فإنما يستفاد من موقع كل من الفاعل والمفعول أي رتبتهما في الجملة.

أما اختلاف الحركات فهو يخضع عنده لعاملين:

الأول: إيثار بعض الحروف لحركة معينة كإيثار حروف الحلق للفتحة سأل يسأل.

الثاني: الميل إلى تجانس الحركات المتجاورة^(١١).

ونلاحظ مما سبق أن الدكتور إبراهيم أنيس يحاول أن يطبق هذا الكلام على الشعر، والنثر لذلك يرى أن الكلمات تنطق ساكنة، ولكن في حالة الوصل يأتي المتكلم بحركة تناسب الحرف الذي يراد تحريكه أو التي تتجانس، وتتسجم مع الحركات الأخرى.

وقد فند الدكتور محمد عبدالخالق عزيمة هذا الرأي موضحاً أن الدكتور إبراهيم أنيس جعل حركات أواخر الكلمات للانسجام، ولكنه لم يبين ضوابط هذا الانسجام ولا حدوده وإذا سئل عنه لم تسمع منه إلا مهمة وغممة لا تتضح فتارة الانسجام عنده تحريك الحرف الأخير بحركة ما قبله، وتارة يحرك الحرف الأخير بحركة ما بعده^(١٢).

كما رد الدكتور مهدي المخزومي على رأى الدكتور إبراهيم أنيس بأننا لا نستطيع تفسير اختلاف اللهجات العربية في الوقف فمثلاً لهجة أزد السراة إذا وقفوا على المرفوع أطالوا ضمته كأنها واو وإذا وقفوا على المكسور أطالوا كسوته كأنها ياء فيقول: ((فإذا لم تكن حركات أعلاماً لمعان قصد إليها المتكلم بل لم تعد أن تكون حركات يحتاج إليها في الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها مع بعض فكيف يفسر الوقف على: خالد في لغة من ينتظر (وهي لغة أزد السراة)؟ ولماذا كانت الدال مرفوعة، ومنصوبة، ومخفضة في الجمل الثلاث؟ ولماذا لا تكسر لتتسجم حركة الدال مع حركة اللام قبلها؟ ... وعليه فإن القول بأن الحركات إنما هي سد للحاجة إلى وصل الكلمات بعضها ببعض، وأنها ليست أعلاماً للمعاني التي قصد إليها المتكلم قول لم يحالفه التوفيق^(١٣).

من خلال هذه الردود يتضح للباحث أن ما قاله قطرب وتبعه فيه إبراهيم أنيس قول غير موفق، ولا ينسجم مع اللغة العربية التي ميزت بالإعراب بين الجمل المختلفة من حيث الدلالة كما أتاحت فرصاً كبيرة للمتحدث ليدل مواقع الكلمات في الجملة عن طريق التقديم والتأخير دون أن يختل المعنى ودون أن يحدث لبس.

٣/ رأى المستشرقين

أيضاً واجه الإعراب نقداً من المستشرقين حيث زعم بعضهم أن ظاهرة الإعراب لم تكن عنصراً مراعى تطبيقه إلا في لغة الآداب: شعرها وخطابتها ونثرها. أما لهجات الحديث فكانت منذ أقدم عصورها غير معربة، وإنما هي خالية من مظاهر الإعراب، ويستندون في ذلك على شبهة سنحاول من خلال هذه الورقة إيرادها ثم دحضها بأدلة كافية لردّها وهذه الشبهة تتمثل في:

دليل منطقي عقلي أتى به المستشرق اليهودي كوهين وهو أن هذه القواعد المنتشعبة والدقيقة من الصعب جداً مراعاتها في الحديث، وربما يتعذر تطبيقها؛ لأنها تتطلب قدراً كبيراً من الانتباه، وملاحظة عناصر الجملة، وعلاقتها بعضها ببعض ولا يمكن مراعاة ذلك في لهجات الحديث؛ لأنَّ لهجات الحديث تميل إلى السهولة، وتتوخى اليسر وتؤثر الإيجاز^(١٤).

وفي رأي هذا الدليل الذي ساقه كوهين يفتقر إلى الصحة، والدقة لأنَّ هذه القواعد المنتشعبة تعد صعبة بالنسبة لنا، ولغيرنا ولكنها لا تعد صعبة بالنسبة للعرب الخُص الذين كانوا يتكلمون اللغة سليقة، وشتان بين من يتكلم اللغة سليقة، وبين من يتكلمها بالتعلم كما فاته أنَّ اللغة العربية المعربة كانت لغة العرب في الجاهلية ولغة القرآن الكريم التي عمت العرب جميعاً.

كما يأتي قول المستشرق الألماني يوهان فك رداً على قول كوهين حيث ذكر أن حركات الإعراب صفة من صفات العربية، وسمة من أقدم سماتها اللغوية^(١٥).

أما علاقة القرآن بهذا الإعراب فبالرغم من الحقيقة الجلية، والتي اعترف بها الناس جميعاً بما لا يقبل أي شك وهي أن القرآن نزل بلسان عربي مبين إلا أن بعض المستشرقين الذين امتلأت قلوبهم حقداً على اللغة، والقرآن يقولون بخلاف هذه الحقيقة وذلك من خلال قول فولرز: ((إن القرآن نزل أول الأمر بلهجة مكة المجردة من ظاهرة الإعراب ثم نقحه العلماء على ما ارتضوه من قواعد ومقاييس حتى أضحى يقرأ بهذا البيان العذب الصافي وغدا في الفصاحة مضرب الأمثال))^(١٦).

ونلاحظ هنا الخطأ الذي وقع فيه هذا المستشرق حيث قال عن لغة قريش إنها (لهجة مكة) ولعله كان يقصد لغة قريش أفصح قبائل العرب، ولعله يقصد بأنها خالية من الإعراب، وأنَّ علم النحو لم يكن موجوداً عند نزول القرآن وهذا صحيح أن علم النحو وضع بعد نزول القرآن، وبسببه وللحفاظ عليه ولكن هناك فرقاً بين "الإعراب: و"النحو" وهذا ما لم يدركه هذا المستشرق حيث خلط بين المصطلحين بينما الإعراب هو ضبط الكلام بحركاته ضبطاً يميز بين معاني الكلم حتى ولو لم تكن هناك حركات إعرابية أو ناب عنها الحرف. وهذا الخلط وقع فيه كثير من المستشرقين، لأنهم فهموا ألفاظها من ظاهر معناها الحرفي دون التعمق في مدلولها وهذا سر من أسرار اللغة العربية امتازت به على سواها من اللغات.

والآن نورد بعض الأدلة من المأثورات الكريمة (القرآن والسنة) تدحض كل قول رأى صاحبه عدم وجود دور للإعراب في المعنى: أولاً: ورد أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ذكر كلمة الإعراب لحدث الناس على التزامه عند تلاوة القرآن ويبين لهم مزاياه ومن ذلك: ((ومن قرأه - القرآن - معرباً فإنَّ أعربه وكل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة)).

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: "من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد" وعن عبدالله بن مسعود "أعربوا القرآن".

وقد كتب كاتب لأبى موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب " من أبو موسى" فكتب إليه عمر رضى الله عنه: "سلام الله عليك فاضرب كاتبك سوطاً واحداً وأخر عطاءه سنة".

ومعلوم أن الإعراب بمعناه الاصطلاحي لم يكن قد ظهر أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أو في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه)) (١٧).

وظاهر من هذه الأحاديث التي ربطت بين الإعراب واللغة العربية أن الإعراب شامل في اللغة، وهذا يقودنا إلى الحقيقة التي ذكرناها سابقاً، وهي أن الإعراب معناه أكبر من مجرد الدلالة على النحو وإنما يعنى فصاحة اللغة حيث فطن العلماء في ذلك الوقت إلى الحركات الإعرابية، ودورها في أداء المعنى ونقدهم لمن يحيد عنها، وذلك قبل أن يضع النحاة قواعدهم.

ثانياً: القرآن لا يفهم إلا إذا قرئ معرباً:

الكتابة العادية يمكن أن تقرأ بدون ضبط أو إعراب أما القرآن الكريم فأمره مختلف وقراءته ((بها حدود ثابتة تحتم قراءته مضبوطة معربة كما تحتم تدبر معناه مع القراءة حتى لا تضيع مثوبة القارئ أو يقتصر إنمأ... ومن الأدلة الدامغة على أن القرآن لا يقرأ إلا مضبوطة ألفاظه منذ نزوله إلى اليوم وإلى ما شاء الله قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فاطر(٢٩) (أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) التوبة (٣) و (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) البقرة (١٢٤).

وهذا هو الفرق بين القرآن وغيره من العلوم الأخرى لأنه وحى منزل من عند الله لا يقرأ إلا بالطريقة التي أنزله بها، ولا يجوز لكائن من كان أن يغير فيه سواء أكان من حيث القراءة أم من حيث الكلمات.

وهذا الرد جعل بعض المستشرقين أمثال جورج سارتون الذي استهوته اللغة العربية الفصحى أن يرد على زعم فولزر بقوله: ((إن الوحي نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم باللغة العربية، وهكذا كانت العربية لغة الله ولغة الوحي وأهل الجنة)) (19).

ثالثاً: العرب الأولون فصحاء بالسليقة ويستشهد بلغتهم:

كان العرب خلصاً في زمن الجاهلية، وما قبل الإسلام، لذلك كانوا ينطقون الكلام معرباً مضبوطاً بطبيعتهم من غير تكلف أو تعليم له حيث لم تتأثر لغتهم بلغات أخرى تؤثر في هذه السليقة إلا فيما بعد وكان الصحابة رضوان الله عليهم كذلك يقرأون القرآن مع ضبطه كما تلقوه من في الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا ما جعل فصيحهم الوليد بن المغيرة يعترف بفصاحة القرآن، وتفوقه في ذلك على لغتهم الفصيحة.

رابعاً: اختلاف اللهجات في إقراء القرآن:

بعد نزول القرآن ((جاءت القبائل العربية من كل حذب وصوب تريد قراءة القرآن ودراسته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يقر كل قبيلة - على قراءتها بلسانها، لأنه يعلم مدى الصعوبة الشديدة في أن نزول القبيلة عن لسانها وتغير من نطقها الذي درج عليه أبناؤها أطفالاً وشباباً وكهولاً حتى قال صلى الله عليه وسلم حديثه المشهور: ((أنزل القرآن على سبعة أحرف فأقرأوا منها ما شئتم)) (20).

وفي واقع الأمر كل هذه القبائل عربية، ولكن تنوعت لغتها نتيجة بحثهم عن المرعى، والكلاً وتجوالمهم في بقاع الجزيرة الشاسعة، وعلى حسب الرأي الراجح في هذا الحديث الذي روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ((أنَّ المراد بالحرف اللغة قال أبو عبيد وأبو العباس نزل على سبع لغات من لغات العرب وروى الأزهرى عن أبي العباس أنه سُئل عن قوله نزل القرآن، على سبعة أحرف فقال ما هي إلا اللغات)) (21).

وهذه الرخصة انتهت بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز القراءة بها بعد لأنَّ هذه الرخصة أنت نتيجة لدخول القبائل المختلفة في الإسلام مع اختلاف لغاتهم، وصعوبة ترك ما تعودوا عليه، ولكن بعد نسخ سيدنا عثمان رضى الله عنه للمصاحف وتوزيعها تم نسخ ما لا يسمح به رسم المصحف بل هذا الأمر تم قبل ذلك عندما ((سمع عمر بن الخطاب رجلاً يقرأ: عتّى حين يريد حتى حين فقال: من أقرأك هذا؟ قال: عبدالله بن مسعود قال: فكتب إلى عبدالله: إنَّ القرآن نزل بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل...)) (22).

الفريق الثاني: يرى أنَّ للإعراب دوراً في المعنى:

يعترف هذا الفريق بوجود الإعراب في اللغة العربية وأنَّ له أثراً في تأدية المعنى، وكشفه، وإزالة اللبس، والغموض في معظم الحالات كما يرون أنَّ للإعراب أيضاً ميزة كبيرة تتمثل في إعطاء الكلمة حريية في التركيب من حيث التقديم والتأخير دون أن تُفقد الكلمة وظيفتها. وهذه ميزة تميزت بها اللغة العربية على غيرها أنها لغة معربة بينما اللغات غير المعربة تلتزم الكلمة فيها رتبة واحدة وبذلك تفقد قسطاً كبيراً من المرونة التي يمكن أن يتيحها لها وجود الإعراب.

والقول بأنَّ حركات الإعراب دوال على المعانى هو قول أكثر النحويين فالزجاجي يقول: ((إنَّ الأسماء لما كانت تعورها المعانى، وتكون فاعلة، ومفعولة ومضافة، ومضافاً إليها ولم تكن في صورها وأبنيته دلالة على هذه المعانى بل كانت مشتركة جعلت حركات الإعراب فيها تبني عن هذه المعانى...)) (23).

فهو يرى أنَّ هذه الأسماء تأتي فاعلة ومفعولة وغيرها وليس فيها ما يدل عليها، أو يميز بينها إلا الإعراب حيث من خلاله نتعرف عليها كما أنَّ هذا الإعراب يتيح لنا فرصة التقديم والتأخير عند الحاجة مما يعد اتساعاً في اللغة.

أيضاً يرى ابن جنى أنَّ الإعراب يبين عن المعانى بالألفاظ دون أن يحدث لبس حيث يقول ((الإعراب هو الإنابة عن المعانى بالألفاظ ألا ترى أنك إذا سمعت: أكرم سعيد أباه وشكر سعيداً أبوه علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ولو كان الكلام شرجاً (نوفاً) واحداً لا ستيهم أحدهما من صاحبه)) (24).

فالتقديم والتأخير من أهم الميزات التي أتاحها الإعراب للغة العربية، ولولاه لما استطاع الدارس التمييز بين الفاعل والمفعول.

ويذكر الزجاجي جانباً آخر من جوانب هذه القضية موضعاً العلة من رفع الفاعل ونصب المفعول وذلك بقوله ((إنما فعل ذلك للفرق بينهما ثم سأل نفسه فقال: فإن قيل لماذا لم يعكس الأمر؟ أجاب أنَّ ذلك أحزم لهم لأنَّ

الفعل له فاعل واحد، وعدة مفاعيل، وهذا ما دعاهم إلى رفع الفاعل لقلته حتى يقل في كلامهم ما يستنتقلون ونصب المفعول ليكثر في كلامهم ما يستخفون)) (25).

ونلاحظ من خلال هذا العرض دلالة الإعراب على المعنى، ودوره الكبير في توضيح الجملة، ولولاه لما عرفنا الفاعل من المفعول، وسيراً في هذا الاتجاه تُروى قصة تدل على أهمية هذا الإعراب حيث ((رؤى أن ابنه أبي الأسود سألته: ما أحسن السماء يا أبت؟ برفع (أحسن) وجر (السماء) فقال نجومها فقالت: لا أريد هذا إنما أتعجب من حسنها فقال: ما هكذا تقولين قولي؛ ما أحسن السماء بالنصب)) (26).

كذلك يرى ابن فارس أن الإعراب تميز به المعاني ويزيل الإبهام الذي يمكن أن يحدث للمتكلم خاصة في الجملة المتشابهة في ألفاظها حيث يقول: ((فأما الإعراب فيه تميز المعاني، ويوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أن قائلًا لو قال: "ما أحسن زيد" غير معرب "ضرب عمر وزيد" غير معرب لم يوقف على مراده فإذا قال: ما أحسن زيداً أو ما أحسن زيد أو ما أحسن زيد أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده، وللعرب في ذلك ما ليس غيرها فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني)) (27).

وهذه نظرة صائبة لأننا عن طريق الإعراب نحصل على ثلاث جمل تعجبية ومنفية واستفهامية وكل واحدة لها معناها الخاص الذي وصح عن طريق الإعراب.

أيضاً من المحدثين الأستاذ إبراهيم مصطفى الذي يرى أن للحركات الإعرابية دلالة على المعنى فكما أن الحركات البنائية تؤدي إلى اختلاف المعنى كذلك الحركات الإعرابية ولكنه يحدد لكل حركة معنى معيناً تدل عليه لأنه ((يدعى أن النحاة العرب جعلوا الإعراب حكماً لفظياً خالصاً يتبع لفظ العامل وأثره ولم يروا في علاماته إشارة إلى معنى ولا أثراً في تصوير مفهوم، أو إلقاء ظل على صورته)) (28).

وبهذا المفهوم لا ينكر إبراهيم مصطفى أن أواخر الكلمات المعربة تختلف في اللغة العربية باختلاف المعنى، ولكنه ينكر أن يتحول العامل من معنى مفهوم إلى لفظ محدود يقيد ذلك المعنى بلوازمه اللفظية لأن هذا التقيد يراه أفسد على النحاة ترتيبهم وتأليفهم، وهذا الرأي وجيه أمام إفراط النحاة في التقديرات التي يوجبها نقل السبب من معنى ملحوظ إلى لفظ محدود (29).

أما المعنى الذي يحدده إبراهيم مصطفى لكل حركة إعرابية فهو يرى أن الضمة علم الإسناد، والكسرة علم الإضافة، وأما الفتحة فيرى أنها لا تدل على معنى، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة التي يلجأ إليها في غير الإسناد والإضافة وذلك لأن الفتحة خفيفة خاصة إذا كانت في وسط اللفظ، ودرج الكلام وشواهد على ذلك فرار العرب في بعض المواضع من الإسكان إلى الفتح مثل قولهم في جمع فترة وحسرة: فترات وحسرات فالعين ساكنة في المفرد، ولكنهم فتحوها في الجمع بالرغم من أن حقها البقاء على التسكين لأن جمع المؤنث يسلم بناء المفرد فيه (30).

ويرى العقاد أن هذا الكلام يعد من خطأ القياس عند المعترضين على طرائق النحاة في التقدير ولأن السكون هنا لا يستقل وإنما الذي يستقل هو الانتقال من الحركة إلى السكون ثم من السكون إلى الحركة ولا فرق في

ذلك بين الفتحة والضمة لأنهم يقولون: الحُجرات والغُرُفات والقُبُلات بدلاً من تسكين العين لأنَّ الاستمرار في حركة واحدة أيسر من الانتقال بين الحركات المختلفة⁽³¹⁾.

كما اعتبر الدكتور إبراهيم السامرائي كلام إبراهيم مصطفى في الفتحة غير سليم، وغريب لأنَّه لا يستند إلى سند علمي خاصة وأنَّ الفتحة دلت على النصب في كثير من اللغات السامية ولا يوجد سبب لهذا الاستحباب الذي ذكره⁽³²⁾.

وهذا الرأي الذي قاله إبراهيم مصطفى وحاول فيه الآتيان بشيء جديد مردود لأنَّ النحاة نصوا صراحة على أنَّ الضمة علم الفاعلية والفتحة علم المفعولية والكسرة علم الإضافة ونلمس ذلك من خلال قول ابن مالك⁽³³⁾.

ورفعُ مفعولٍ به لا يُلبَسُ مع نصب فاعلٍ رَووا فلا تقس

فمعنى البيت أنَّ الرفع علامة الفاعلية، والنصب علامة المفعولية وإنَّ وضح أحدهما بغير العلامة يجوز إعطاء علامة كل واحد منهما إلى الآخر كما في: خرق الثوب المسمار.

وإبراهيم مصطفى في رأيه هذا لم يأت بجديد وإنما أخذ هذا القول من كتاب المفصل للزمخشري حيث يقول الزمخشري: ((فالرفع علم الفاعلية، والفاعل واحد ليس إلا وأما المبتدأ وخبره وخبر إنَّ وأخواتها، ولا التي لنفى الجنس، واسم ما ولا المشبهتين بليس فملحقات الفاعل على سبيل التشبيه، والتقريب وكذلك النصب على المفعولية والمفعول خمسة أضرب وبقية المنصوبات ملحقات به، والجر علم الإضافة⁽³⁴⁾.

وخلاصة الأمر في رأى إبراهيم مصطفى أنَّه لم يأت بشيء جديد وإنما كل ما فعله هو عرضه لرأى الزمخشري، ولكنه حاول مخالفة الزمخشري في رأيه عند الفتحة بأنَّها الحركة المستحبة وحتى هذا القول فنده العلماء، واعتبروه يخالف الحقيقة لأنَّه لا يستند إلى سند علمي كما أنَّ الفتحة كعلامة للنصب وردت في كثير من اللغات السامية لذلك لم يكن لمحاولته أثر كبير في تجديد النحو.

وفي ختام عرضي لهذه القضية التي تتعلق بالإعراب ودوره في اللغة العربية يتضح لى أنَّ هذا المصطلح ورد في مصادر اللغة المختلفة، وبمعناه الشامل الذي يدل على الفصاحة والبيان ومن يقول بخلاف ذلك يعد متحاملًا على اللغة العربية دون حق خاصة وأنَّ كثيراً من خصائص اللغة العربية يرتبط بهذا المفهوم الشامل الذي أكسبها مرونة جعلتها تقدم وتؤخر في مفردات الجملة دون أن يلبس الأمر على القارئ أو السامع.

والآن نعرض بعض النماذج من مصادر اللغة العربية نوضح من خلالها دور الإعراب في المعنى، والإنابة والتوضيح:

أولاً: القرآن الكريم

وردت آيات في القرآن الكريم تشير إلى مشتقات هذا المصطلح كما في قوله تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) يوسف⁽²⁾.

(لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) النحل (103).

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) الشورى (7).

هذه الآيات تصف القرآن بأنه عربي، وتدعو إلى معرفة ذلك بصورة جلية وكونه عربياً يدل على ارتباطه بالفصاحة التي لا تشوبها شائبة، وعلى من يقرأه التركيز على إبانته حتى لا يفقد ثواب إعراب القرآن.

كما أن هناك آيات يختلف المعنى فيها إذا اختلف الإعراب بسبب القراءات أو غيره نورد نماذج منها: (35).

١/ قال تعالى: (وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ) البقرة (132).

فالعطف هنا يوقع القارئ في حيرة لا ينقذه منها إلا الإعراب فهو لا يدري أيعقوب معطوف على إبراهيم؟ فيكون المعنى ووصى بها يعقوب بنيه أسوة بإبراهيم أم معطوف على بنيه فيكون المعنى ووصى بها إبراهيم بنيه ووصى بها يعقوب في جملة بنيه أيضاً.

٢/ قال تعالى: (يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا) الأنعام (27).

فقرئ ولا نكذب بالرفع على معنى ياليتنا نرد ويا ليتنا لا نكذب وقرئ ولا نكذب بالنصب على المعنى ليتنا يكون لنا عود إلى الحياة يصاحبه التصديق والإيمان.

ونكتفى بهذين الشاهدين اللذين اتضح لنا من خلالهما دور الإعراب في توجيه المعنى.

ثانياً: الحديث النبوي الشريف:

طالما حديثنا عن الإعراب، ومعانيه، ودلالاته نورد بعض النماذج التي قالها الرسول صلى الله عليه وسلم يحث فيها على اللغة الفصيحة والتي بدورها ستقود إلى فصاحة في تلاوة القرآن الكريم (36).

١/ "أعربوا القرآن و التمسوا غرائبه"

٢/ "من قرأ القرآن بإعراب فله أجر شهيد"

٣/ "أعربوا الكلام كي تعربوا القرآن:

فالرسول صلى الله عليه وسلم كان شديد الحرص على إعراب القرآن بالرغم من أن الإعراب بمعناه النحوي المحدود لم يكن معروفاً في عهده، وإنما قصده الإفصاح والإبانة.

ثالثاً: أقوال العرب:

١/ قال الزركشي: يستحب قراءته (أى القرآن) بالنفخيم، والإعراب والمقصود بالإعراب هنا الفصاحة والبيان.

٢/ قال مالك بن أنس: الإعراب حلى الكلام فلا تمنعوا ألسنتكم حليها (37).

كما يتضح دور الإعراب في توجيه مفردات الجملة نحو المعنى المطلوب فمثلاً لو قائلًا قال: "فلان متهم بقتل السائق وابنه" لا يعرف علام يعطف ابنه: أعلى فلان فيكون قاتلاً أم على السائق فيكون مقتولاً.

فإذا عطف على فلان يكون مرفوعاً وإذا عطف على السائق يكون مجروراً وهذا يدل على أهمية الإعراب في الإبانة عن المعاني المختلفة في العبارة الواحدة ولولاه لما قطع الناس بوضع (ابنه) من حيث المعنى والدلالة.

ويمكن أن يقال: ((كانت الشمس طالعة والمطر منهمر)) فلا يعلم القارئ هل الواو عاطفة؟ فيكون المراد وكان المطر منهمرًا قاصداً الحديث عن طلوع الشمس وانهمار المطر، أو هي حالية فيكون المراد الحديث عن طلوع الشمس في حال انهمار المطر (38).

وفي ختام هذه الورقة نصل إلى النتائج الآتية:

- ١/ هناك علماء أنكروا دور الإعراب في المعنى، وهم من العرب والمستشرقين وقد فندنا ما أتوا به من حجج بالأدلة المقنعة من خلال عرضنا لهذا الموضوع.
- ٢/ معظم العلماء اعترفوا بالإعراب، ودوره في المعنى، وهم غالبية علماء اللغة العربية، وقد دعمنا رأيهم بأدلة من القرآن الكريم وكلام العرب اتضح من خلالها صحة ما ذهبوا إليه. وهذا يدل على أن اللغة العربية قوامها الفصاحة حيث يشكل الإعراب عمودها الصلب الذي لا تصح بدونه.
- ٣/ أن القرآن الكريم أتى معرباً، والرسول صلى الله عليه وسلم تلقاه على هذا النحو من ربّه ثم تلقاه أصحابه من فيه معرباً، وهناك آيات فيه لا يتضح معناها إلا من خلال الإعراب وهذا يدل على قدم المصطلح، وذلك قبل أن يضع علماء النحو قواعد النحو.
- ٤/ المقصود بهذا المصطلح (الإعراب) الإبانة والتوضيح والفصاحة، لذلك لا يشكل هذا المصطلح قريناً أو نداً لمصطلح البناء وإنما معناه أشمل وأكبر من ذلك.
- ٥/ هناك من ينادى بإلغاء الإعراب من اللغة العربية لصعوبته حسب زعمهم فإذا سلمنا بقولهم فأين نذهب بهذا التراث الضخم المتمثل في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ومأثور كلام العرب وهو معرب؟
- ٦/ نحن نتوخى الحذر، والحيطة في حياتنا اليومية فلماذا لا نطبق ذلك على اللغة، ومعرفتها وهي تمثل تراثنا، وكياننا، ووجدتنا وشرفها الله سبحانه وتعالى بإنزال كتابه بها؟

التوصيات:

الإعراب موضوع واسع ومنتشعب ويصلح لدراسات أوسع تتناول جوانبه المختلفة وذلك من خلال دراسة:

١/ دوره الشكلي والدلالي في الجملة العربية.

٢/ دوره في وظيفة التفاهم وغيرها من جوانبه المختلفة.

المراجع :

- ١/ ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب دار صادر بيروت مادة (عرب).
- ٢/ الفيروزآبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (١٩٩٥) القاموس المحيط ضبط الشيخ محمد البقاعي دار الفكر بيروت مادة (عرب).
- ٣/ علوش، د. جميل (١٩٩٧) الإعراب والبناء دراسة في نظرية النحو العربي ط١ المؤسسة الجامعية بيروت ١٧-٢٥٥.
- ٤/ سببوية، أبو بشر عمرو بن عثمان (١٩٦٦) الكتاب ج١ تحقيق هارون ، عبدالسلام دار القلم بيروت ١٣.
- ٥/ وافي ، د. علي عبدالواحد (ندون تاريخ) في فقه اللغة ط٨ دار نهضة مصر ٢١٠.
- ٦/ ابن فارس، أو الحسن أحمد بن فارس (١٩٧٥) الصحابي في فقه اللغة تحقيق السيد أحمد صقر مطبعة الحلبي ٣١٠.
- ٧/ ابن قتيبة، محمد بن عبدالله بن مسلم (١٩٧٣) تأويل مشكل القرآن ط٢ دار التراث القاهرة ص ١٤.
- ٨/ الزجاجي ، عبدالرحمن بن أسحاق (١٩٧٩) الإيضاح في علل النحو تحقيق المبارك ، د. مازن ط٣ دار النفائس بيروت ٩١-١٥٩.
- ٩/ المرجع السابق ص ٧٠-١٥٩.
- ١٠/ أنيس ، د. إبراهيم (١٩٥١) من أسرار العربية ط٣ مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٨.
- ١١/ انظر: الفكي د. عثمان (١٩٩٦) محاضرات في أمهات المصادر أقيت لطلبة الماجستير باليمن.
- ١٢/ أنظر: هلال ، د. عبدالغفار حامد (١٩٨٩) علم اللغة بين القديم والحديث ط٣ مطبعة الجيالوي ٢٥١-٤٠٦.
- ١٣/ المخزومي، د. مهدي (١٩٥٨) مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو مطبعة مصطفى الحلبي ٢٥١.
- ١٤/ انظر: فقة اللغة لوافي (سابق) ٢١١.
- وكذلك: السامرائي ، د. إبراهيم (١٩٧٨) فقه اللغة المقارن ط٢ دار العلم بيروت ١٢٣.
- ١٥/ انظر: فقة اللغة المقارن للسامرائي (سابق) ١٢٤.
- ١٦/ الصالح، د. صبحي (١٩٦٢) دراسات في فقه اللغة ط٢ المكتبة الأهلية بيروت ١٢٣.

- ١٧/ عبدالنواب ، د. رمضان (١٩٨٧) فصول في فقه العربية ط٣ مكتبة الخانجي القاهرة ٣٨٧-٤٥٦.
- وكذلك: السيد، د. فضل ربه (بدون تاريخ) فقه اللغة مطابع الثقافة بيروت ص ٧٧.
- ١٨/ فقه اللغة د. فضل ربه السيد(سابق) ص ٩٢.
- ١٩/ السابق ٩٥.
- ٢٠/ السابق ٩٤.
- ٢١/ عبدالرحيم، د. عبدالجيلي (١٩٨١) لغة القرآن الكريم ط١ مكتبة الرسالة الأردن ٩٣-٦٢٢.
- ٢٢/ فصول في فقه اللغة د. رمضان (سابق) ٣٧٩-٤٥٦.
- ٢٣/ الإيضاح في علل النحو للزجاجي (سابق) ص ٩٦-١٥٩.
- ٢٤/ ابن جنى، أبو الفتح عثمان (٢٠٠١) الخصائص ج١ تحقيق هندلوى، د. عبدالحميد ط١ دار الكتب العلمية بيروت ٣٦-٥٣٢.
- ٢٥/ المرجع السابق ج١ ص ٥٠.
- ٢٦/ علم اللغة د. عبد الغفار حامد (سابق) ٢٦٢-٤٠٦.
- ٢٧/ الصحابي في فق اللغة ابن فارس (سابق) ص ١٩٠.
- ٢٨/ نقلاً عن علم اللغة د. عبدالغفار حامد (سابق) ٢٧٢-٤٠٦.
- ٢٩/ انظر: العقاد، عباس محمود (١٩٨٨) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ط١ دار المعارف مصر ٣٠-١٥٦.
- وكذلك الفكي، د. مصطفى (١٩٩٦) محاضرات في أصول النحو لطلاب الماجستير باليمن.
- ٣٠/ انظر: أشتات مجتمعات للعقاد (سابق) ٣٢-١٥٦ وكذلك الفكي د. عثمان (١٩٩٦) محاضرات في أمهات المصادر لطلاب الماجستير باليمن.
- ٣١/ انظر: أشتات مجتمعات للعقاد (سابق) ٣٤-١٥٦.
- ٣٢/ فقه اللغة المقارن للسامرائي (سابق) ١٢٣.
- ٣٣/ الأشموني ، على بن محمد (بدون تاريخ) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ج١ مكتبة الإيمان القاهرة ٣١-٥٧٦.

٣٤/ ابن يعيش ، أبو البقاء موفق الدين يعيش بن علي (٢٠٠١) شرح المفصل ج ١ دار الكتب العلمية بيروت .٧٢

٣٥/ انظر: ناصف، علي النجدي (بدون تاريخ) من قضايا النحو واللغة مكتبة نهضة مصر القاهرة ١٦-١٥٩.

٣٦/ انظر: الإعراب والبناء للدكتور جميل (سابق) ٢٠-٢٥٥.

٣٧/ السابق ٢١-٢٥٥.

٣٨/ من قضايا اللغة والنحو علي النجدي (سابق) ١٧-١٥٩.